

موقف من يونس بن حبيب

للككتور محمود حسني محمود

(الجامعة الأردنية)

- ١ -

هو (١) أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب النحوي البصري . يكاد أغلب الذين ترجموا له أن يتفقوا على أنه واحد من الموالى العرب ، ولكنهم حاروا في من كان مولاه ، فقيل (٢) أنهم بنو ضبة ، وقيل (٣) بنو ليث بن بكر ، وقيل (٤) بلال بن هرمي ، من بني ضبيعة بن بجالة . أما صاحب « معجم الأدباء » فقد رأى أنه ضبي نسبة صريحا ، ولكنه عاد وروى أنه مولى بني ليث ؛ قال (٥) : « أبو عبد الرحمن الضبي وقيل الليثي بالولاء » . وكان نسب يونس يحتر أباه الحسن الخزاز ، الذي لم يستطع أن يتحقق من الأمر ، فكان يقول (٦) : « لا أدري هو مولى أم لا » . وفي جميع الأحوال فإن يونس يبقى عربي الأصل . ولم يذهب أحد إلى أنه غير ذلك سوى صاحب «مفاخر» .

١ - طبقات المفسرين : ج ٢ / ٢٨٥ . بغية الوعاة : ج ٢ / ٣٦٥ . انباه الرواة : ج ٤ / ٦٨ .

٢ - وفيات الاعيان : ج ٧ / ٢٤٤ . الفهرست : ص ٧٩ . انباه الرواة : ج ٤ / ٦٨ .

٣ - وفيات الاعيان : ج ٧ / ٢٤٤ . معجم الادباء ج ٢ / ٦٤ . الفهرست : ص ٧٩ .

٤ - وفيات الاعيان ج ٧ / ٢٤٤ .

٥ - ج ٢٠ / ٦٤ .

٦ - الفهرست : ص ٧٩ .

العجم « الذي ادعى (٧) أنه أعجمي الأصل ، مفتخرا بذلك ، توهما (٨) منه أنه من اهل الجبل، بينما هو في الحقيقة من مواليد جبل (٩) : القرية الواقعة (١٠) بين النعمانية وواسط ، ولعل لفظ « جبل » هو الذي اوهمه انه من اهل الجبل .

وقد قدر الله ليونس أن يعيش عمرا مديدا ، اختلفت الروايات (١١) في تقديره ، وتراوح فيها بين ٧٨ سنة الى ١٠٢ من السنين ، ولكن الاغلب أنه عاش ٨٨ عاما ، او قريبا منها ، وأنه توفي سنة ١٨٢ هـ .

ويبدو أنه فرغ حياته تماما من أجل العلم ، ولم تشغله شواغل الدنيا « فلم (١٢) يُتَسَّرَ ، ولم يقزوج » ، و « (١٣) لم تكن له همة الا طلب العلم ، ومحادثة الرجال » ولعلَّ عدم انشغاله بشيء غير العلم يسَّر عليه جهدا في امتلاك حصيلته العلمية التي وصل اليها ، وامكنه من الحفاظ عليها حتى قبل فيه قول ظريف : « (١٤) مثل يونس كمثَّل كوز ضيق الراس ، لا يدخله

٧ - الفهرست : ص ٧٩ .

٨ - تاريخ الادب العربي (بروكلمان) : ج ٢ / ١٣٠ .

٩ - وفيات الاعيان ج ٧ / ٢٤٤ . انباء الرواة : ج ٤ / ٦٨ .

١٠ - معجم البلدان : ج ٢ / ١٠٢ . قال ياقوت : « بلدية بين النعمانية وواسط في الجانب الشرقي كانت مدينة واما الان فاني رايتها مرارا وهي قرية كبيرة ، قال البحجري : لئن اوحشتي جبل وخصاصها لا انستني واسط وقصورها » .

١١ - ولعل اصحها تلك التي وردت على لسان الجاحظ في حديثه للمبرد، وتفيد بان يونس توفي سنة ١٨٢ هـ وهو ابن ثمان وثمانين (مراتب النحويين ص ٢١ وانظر الحيوان ج ٥ / ٥٩١) . وهذه الرواية تتطابق مع ما ورد على لسان اسحق بن ابراهيم الموصلي في الفهرست ص ٧٩ .

اما في : البداية والنهاية : ج ١٠ / ١٨٤ . فقد ورد انه توفي عن ٧٨ سنة . وفي طبقات المفسرين ج ٢ / ٢٨٦ وبغية الوعاة : ج ٢ / ٣٦٥ توفي عن تسعين . وفي احسدى روايات الانباء : ج ٤ / ٧١ انه جاوز المائة .

١٢ - انباء الرواة : ج ٤ / ٧١ . طبقات المفسرين : ج ٢ / ٢٨٦ . بغية الوعاة : ج ٢ / ٣٦٥ .

١٣ - الفهرست : ص ٧٩ . وفيات الاعيان : ج ٧ / ٢٤٥ . انباء الرواة : ج ٤ / ٧١ .

١٤ - طبقات النحويين واللغويين : ص ٥١ . انباء الرواة : ج ٤ / ٦٨ .

شيء إلا بعسر ، فاذا دخله لم يخرج منه « اي لا ينسى . وبقي يونس يفيد من علمه الى ان (١٥) « تفرغ من الكبر » ، إذ وصل عمراً لا احد يرجو ان يصل اليه ، فقد « (١٦) دخل المسجد يوما وهو يهادي بين اثنين من الكبر ، فقال له رجل كان يتهمه على مودته : بلغت ما ارى يا ابا عبد الرحمن ، قال : هو الذي ترى ، فلا بلّغته . » .

وكان يونس ذا نظرة تأملية ، وصاحب راي في بعض الجوانب الحياتية ، فكان يقول : « (١٧) ثلاثة والله اشتهاى ان أمكن من مناظرتهم يوم القيامة : آدم ، عليه السلام ، فأقول له : قد مكّنك الله من الجنة وحرّم عليك شجرة ، فقصدت لها حتى القيتنا في هذا المكروه ؟ . ويوسف ، عليه السلام ، أقول له : كنت بمصر ، وابوك عليه السلام بكنعان ، بينك وبينه عشر مراحل ، يبكي عليك ، لم لم ترسل اليه : اني في عافية ، وترىحه مما كان فيه من الحزن ؟

وطلحة والزبير أقول لهما : عليّ بن ابي طالب ، عليه السلام ، بايعتماه بالمدينة ، وخالعتماه بالعراق . لم ؟ اي شيء احدث ؟ »

وللشباب والاحباء عنده مكانة عالية حين يقول (١٨) :

شيطان لو بكت الدماء عليهما عيناى حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما ، شرخ الشباب وفرقة الاحباب

وللعلم عنده مكانة لا تدانيها مكانة ، فكان يقول : « (١٩) إن علمك

١٥ - القهرست : ص ٧٩ . انباه الرواة : ج ٤ / ٧١ .

١٦ - مراتب النحويين : ص ٢١ . انباه الرواة : ج ٤ / ٦٨ .

١٧ - أخبار النحويين البصريين : ص ٢٩ .

١٨ - شخرات الذهب : ج ١ / ٣٠١ .

١٩ - الحيوان : ج ١ / ٦١ .

من روحك ، ومالك من بدنك ، فضعه منك بمكان الروح ، وضع مالك بمكان البدن » .

تثقف يونس ثقافة واسعة تمثل ثقافة عصره ؛ وكان متجلبيا في اكثر من علم واحد : فهو عالم بالانساب ، يُضْرَبُ به المثل في الدراية بهذا العلم والتمكّن منه . قال الجاحظ في حديثه عن الحمام : « (٢٠) ووصف الهذيل المازني مثنى بن زهير وحفظه لانساب الحمام ، فقال : « والله لهو انساب من سعيد بن المسيب وقتادة بن دعامة للناس ، بل هو انساب من ابي بكر الصديق رضي الله عنه ! لقد دخلت على رجل اعرف بالامهات المنجبات من سُحَيْم بن حفص ، واعرف بما دخلها من الهجنة والإقتراف من يونس بن حبيب » .

وهو قصاص من اولئك الذين كان الناس يتحلّقون حولهم في المساجد ويستمعون الى ما يروونه من احاديث واخبار . ويبدو أن الموضوع الذي كان يدور حوله القصاص — كما يبدو من خلال ذكر (٢١) الجاحظ لهم — هو تفسير آيات القرآن الكريم ، فبرع يونس بين المفسرين ، (٢٢) وترجم له في طبقاتهم ، ولا سيما وقد ألف كتابا سماه « (٢٣) معاني القرآن » . ولعل يونس في تأليفه هذا الكتاب هو الذي أوحى الى تلامذته : ابي

٢٠ — الحيوان : ج ٢ / ٢١٠ .

٢١ — انظر البيان والتبيين : ج ١ / ١٩٢ — ١٩٤ .

٢٢ — انظر : طبقات المفسرين : ج ٢ / ٢٨٥ — ٢٨٦ .

٢٣ — انظر : الفهرست : ص ٧٩ . وقد خلط صاحب معجم الادباء (ج ٢٠ / ٦٧) بين معاني القرآن و « النوار » فذكره باسم « معاني القرآن الكبير » « معاني القرآن الصغير » مع ان كتاب المعاني كتاب واحد ، اما النوار فالف فيها كتابين : الكبير والصغير كما سيرد فيما بعد .

عبدة (٢٤) والكسائي (٢٥) والأخفش (٢٦) والفراء (٢٧) أن يسلكوا مسلكه ويؤلفوا كتباً في الموضوع نفسه تحمل اسم الكتاب الذي ألفه . وله آراء (٢٨) تفسيرية تناقلتها الكتب بعده .

وهو ناقد أدبي مؤهل بكل متطلبات النقد ، كان « ٢٩ » عالماً بالشعر ، نافذ البصر في تمييز جيده من رديئه ، عارفاً بطبقات شعراء العرب ، حافظاً لأنسابهم « ، مرجعاً لمن كان الأدب يشكل جزءاً من تفكيرهم وهمومهم ؛ دم (٣٠) عليه جعفر بن العباس من عند الخليفة المهدي وقال له : أنا وأمير المؤمنين اختلفنا في هذا البيت :

والشيبُ ينهض في السواد كأنه ليل يصيح بجاتبه نهار

فما الليل والنهار ؟ فقال يونس : الليل ، الليل الذي تعرف والنهار . النهار الذي تعرف ، فقال جعفر : زعم المهدي أن الليل فرخ الكروان ، والنهار فرخ الحبارى . فقال أبو عبدة في البيت ما قاله يونس . والذي قاله المهدي معروف في الغريب من اللغة .

وكان الشعراء يذهبون إليه يستأنسون برأيه ، قبل أن يذيعوا أشعارهم للناس ؛ حتى أن بعضهم كان يتخذ من رأيه القول الفصل ، فإما أن يظهر شعره وإما أن يلقيه ولا يلتفت إليه . قدم (٣١) عليه مروان بن

٢٤ - انظر انباه الرواة ج ٢ / ٢٥٦ .

٢٥ - انظر نزهة الالباء ص ٦٠ .

٢٦ - انظر انباه الرواة ج ٢ / ٤٢ .

٢٧ - انظر : نزهة الالباء ص ٨١ .

٢٨ - انظر : الحيوان ج ٥ / ٢٤٠ ج ٥ / ٢٩٥ ، وطبقات فحول الشعراء ص ٥٤ (مطبعة المدني - القاهرة - ١٩٧٤) .

٢٩ - معجم الابداء ٢ / ٦٤ .

٣٠ - وفيات الاعيان ٧ / ٢٤٧ .

٣١ - المرشح ص ٥٠ معجم الابداء ج ٢ / ٦٦ .

أبي حفصة ، وقال له : لقد قلت شعرا أعرضه عليك، فان كان جيدا أظهرته،
وإن كان رديئا سترته ، وأنشده :

طرقتك زائرة فحيّ خيالها

قال : فقال له : يا هذا ، اذهب فأظهر هذا الشعر ، فانت والله
فيه أشعر من الأعشى ، يريد في قوله (٣٢) :

رحلت سمية غدوة أجمالها

فقال له مروان : قد سؤتني وسررتني ، فأما الذي سررتني به
فلإرتضائك الشعر ، وأما الذي سؤتني به فلتقديمك إياي على الأعشى ،
قال : نعم ، إن الأعشى قال :

فرمى غفلة عينه عن شاته فأصبت حبة قلبها وطحالها .

والطحال لا يدخل في شيء الا أفسده ، وانت لم تقل ذلك .

وكان يستطيع ان يميز رواية الشعر صدقها من كذبها ؛ فقد روي (٣٣)
لأبي عمرو بن العلاء — بحضور يونس وأبي عبيدة — ان الوليد بن عبد الملك
لام العجاج لقوله شعراً في عمر بن عبيد الله بن معمر افضل من ذلك الذي
قاله فيه ، فقال يونس لأبي عبيدة بعد سماع الرواية : أتصدق بهذا ؟ ما
كان من هذا شيء قط ، ولا كان الوليد يحسنه . قال عمر بن شبسة : ولا
أحسب يونس الا قد صدق ؛ كان الوليد لحانا ، وكان عبد الملك يعتمر من
ذلك ، ويقول : « شغلنا حب الوليد عن تأديبه ، لكن هذا سليمان فاسالوه
عما شئتم » .

وكان الشعراء يحفلون بقوله ويبنون عليه شعراً ، فقد (٣٤) بنى

٢٢ — ديوان الأعشى ص ٢٧ قصيدة رقم ٢ .

٢٣ — الموشع ص ١٩٦ .

٢٤ — وفيات الأعيان ج ٧ / ٢٤٦ .

منصور النمري على قول يونس : « ما بكت العرب على شيء في أشعارها
كبكانها على الشباب ، وما بلغت كنهه » ؛ فقال من جملة قصيدة يمدح
بها هارون الرشيد :

ما كنت أوفي شبابي كنه غرته حتى انقضى فاذا الدنيا له تبسم
وليونس قول ذائع يدل على دقة حكمه ومعرفته بطبيعة الشعر ، وما
يتحكم في جودته ؛ فقد سأله ابن سلام عن اشعر الناس ، فقال : « (٣٤) لا
أومىء الى رجل بعينه ولكني أقول : امرؤ القيس اذا ركب ، والنابعة اذا
رهب ، وزهير اذا رغب ، والاعشى اذا طرب » . وكان يقول عن الشعر :
« (٣٥) انه كالسراء والشجاعة والجمال ، لا ينتهي فيه الى غاية » .

وكان للشعراء عنده مكانة عالية ، وعلاقة وثيقة ؛ ولعل أمتن هذه
العلاقات تلك التي كانت بينه وبين العجاج ورؤية ، حتى انهما كانا عنده
« (٣٦) اشعر اهل القصيد » . وقد (٣٧) « اختص بالرواية عن رؤية
وتعصب له » ؛ وكان يهب للدفاع عنه اذا ما حاول احد ان ينال منه ؛
فهذا (٣٨) شبيل بن عزرة يدخل على ابي عمرو بن العلاء — يونس حاضر
— فيبدي استغرابه من ان رؤية لا يعرف اشتقاق اسمه ، فيثب يونس ،
ثم يجلس بين يدي شبيل ويقول له : « لك تظن ان معد بن عدنان كان افسح
من رؤية ؟ فانا غلام رؤية . فما الرؤبة والرؤبة والرؤبة والرؤبة ؟

٢٤ — معجم الادباء ج ٢٠ / ٦٥ ، خزانة الأند ج ١ / ١٧٥ .

٢٥ — طبقات فحول الشعراء ص ٦٦ (مطبعة المدني — القاهرة ١٩٧٤) .

٢٦ — خزانة الأند ج ١ / ٩٠ .

٢٧ — الرواية والاستشهاد باللفظ ص ١١ .

٢٨ — مراتب التحويين ص ٢٢ . خزانة الادب ج ١ / ٩٠ .

كان شبيل بن عزرة راوية نسابة عالما بالفريب ، وكان شاعرا ، نشئ سبعين سنة ثم
صار بعد ذلك خارجيا ويكنى ابا عمرو ، مات بالبصرة . انظر مراتب التحويين ص ٢٢ .

(الخامسة مهموزة فقط) ، فاذا بشبيل يغضب ويقوم ، واذا بأبي عمرو ينكر على يونس تصرفه مع رجل شريف قصد مجلسه ؛ فيعتذر يونس قائلاً : ما تمالكت اذ ذكر رؤبة ان قلت ما قلت .

غير ان شهرة يونس تأتي من علمه باللغة والنحو، إذ (٣٩) « كان اغلب عليه » يعرف به فيقال (.) « يونس النحوي » تمييزاً له عن غيره ممن عرفوا بهذا الاسم • وقد سمع (٤١) اللغة عن العرب، شأنه شأن اوائل النحاة الذين كانوا يستقون المادة النحوية من افواه الاعراب في البادية ؛ وآلف (٤٢) في اللغة كتاب « اللغات » و « النوادر الكبير » و « النوادر الصغير » و « الامثال » .

اما النحو فأخذه عن مجموعته، اولهم (٤٣) حماد ابن سلمة ، مع انه كان اسن (٤٤) منه ، وكان يونس يفضلته (٤٥) ؛ ولكن اكثرهم تأثيراً فيه ابا عمرو بن العلاء الذي يبدو انه كان ملازماً اياه ، يكتب له حتى عد من كتبه (٤٦) . واثر ابي عمرو في علم يونس ظاهر في ميدان الشعر ، والرواية ، والنقد ، واللغة والنحو ؛ وكان يونس يجلّ استاذه ويحترم رايه قائلاً : « (٤٧) لو كان احد ينبغي ان يؤخذ بقوله كله في شيء واحد ، كان ينبغي لقول ابي عمرو بن العلاء في العربية ان يؤخذ كله ، ولكن ليس احد الا وانت آخذ من قوله وتارك » .

-
- ٣٩ - مراتب النحويين ص ٢١ .
٤٠ - انظر : وفيات الاعيان ج ٧ / ٢٤٤ ، خزائن الادب ج ١ / ٩٠ . شذرات الذهب ج ١ / ٣٠١ .
٤١ - اخبار النحويين ص ٢٧ .
٤٢ - انظر : الفهرست ص ٧٩ .
٤٣ - طبقات النحويين واللفويين ص ٥١ .
٤٤ - نزهة الالباء : ص ٤٢ .
٤٥ - المصدر نفسه ص ٤٢ .
٤٦ - اخبار النحويين البصريين ص ٢٧ .
٤٧ - طبقات فحول الشعراء ص ١٦ (المدني - القاهرة ١٩٧٤ م) وانظر : نزهة الالباء ص ٣١ .

وقد شاهد يونس مرحلة متطورة في ميدان النحو ، توضحت فيها أسس النحو ، وثبتت فيما بعد في كتاب سيبويه • وتعد هذه المرحلة قفزة واسعة إذا ما قيست بتلك التي شهدتها ابن أبي اسحق • سئل (٤٨) يونس عن ابن أبي اسحق وعلمه فقال : هو والبحر سواء ؛ أي هو الغاية . قال : فأين علمه من علم الناس اليوم ، لو لم يكن في الناس اليوم أحد لا يعلم الا علمه يومئذ لضحك منه ، ولو كان فيهم من له ذهنه ونفاذه ، ونظر نظره لكان أعلم الناس .

وقد أسهم يونس في تطور النحو مساهمة فعالة ، وكان له شخصيته الواضحة وأثره البين حتى قيل : « (٤٩) له قياس في النحو ومذاهب ينفرد بها » . وقد خصص معظم حياته للتدريس ، فكان له بالبصرة حلقة (٥٠) ينتابها طلاب العلم وأهل الأدب ، وفصحاء الأعراب ، ووفود البادية ؛ ودرس عليه علماء مشاهير سنوات طويلة ٤ فاختلف (٥١) اليه أبو عبيدة أربعين سنة ، وأبو زيد عشر سنين ، وخلف الأحمر عشرين سنة ، وأخذ عنه قطرب ، (٥٢) ومحمد (٥٣) بن سلام الجمحي ، والكسائي ، والفراء .

ويكنيه ان سيبويه أخذ عنه فأكثر (٥٤) ، ونقل عنه نقولا صدق فيها

٤٨ — طبقات النحويين واللغويين ص ٣١ .

٤٩ — أخبار النحويين البصريين ص ٢٧ وانظر انباه الرواة : ٧٠/٤ .

٥٠ — انظر : الفهرست ص ٧٩ ، وانباه الرواة : ج ٧٠/٤ .

٥١ — وفيات الأعيان : ج ٢٤٥/٧ . معجم الأبناء : ج ٦٥/٢٠ . انباه الرواة : ج ٧١/٤ .
شذرات الذهب : ج ٣٠١/١ .

٥٢ — انظر : مراتب النحويين ص ٦٧ .

٥٣ — انظر : مراتب النحويين ص ٦٧ .

٥٤ — أخبار النحويين البصريين : ص ٢٧ . انباه الرواة : ج ٧٠ / ٤ ، طبقات المفسرين
ج ٢٨٦/٢ .

جميعا ، وشهد يونس على صدقها شهادة رفعت من ذكر سيبويه وكتابه ،
نقد (٥٥) قال حين ذكر سيبويه عنده : اظن هذا الغلام يكذب على الخليل :
فتيل له : قد روى عنك أشياء كثيرة ، فانظر فيها ، فنظر فيها ، فقال :
صدق في جميع ما قال ، هو قولي .

وقد ذكر سيبويه يونس وروى عنه في نحو ٢٠٠ موضع (٥٦) من
مواضع الكتاب، بحيث كان يتكرر (٥٧) اسمه في الصفحة الواحدة احيانا اكثر
من مرة واحدة .

وقد روى يونس في الكتاب لغة كثيرة عن العرب ، وكان مفتاح رواياته
عنهم يختلف من رواية الى اخرى ، فكان يفتح روايته بـ (٥٨) « أن قوما من
العرب ... » ، (٥٩) « أن ناسا يقولون ... » ، (٦٠) « أن ناسا من
العرب ... » ، (٦١) « أن بعض العرب الموثوق بهم ... » ، (٦٢) « أن بعض
العرب ... » ، (٦٣) « أن قوما ... » ، (٦٤) « أن العرب
تقول ... » ، (٦٥) « أنه سمع اعرابيا ... » ، (٦٦) « أنه سمع

٥٥ - اخبار النحويين المصريين : ص ٣٧ .

٥٦ - انظر : سيبويه امام النحاة : ص ٩٠ .

٥٧ - انظر : كتاب سيبويه ج ١ / ٤٢٨ ذكر اربع مرات ، وج ٢ / ٤١٠ ، ٤١١ ، وانظر :
ج ٢ / ١٩٧ ، ٣٠٤ ، ٣١٢ ، ٣٤٧ ، ٣٦١ ، ٤٤٢ ، ٦٢٢ .

٥٨ - انظر : الكتاب ج ١ / ٢٨٩ .

٥٩ - الكتاب ج ١ / ٤١٦ ، ج ٢ / ٤١٠ .

٦٠ - انظر : الكتاب : ج ٢ / ٢٧ ، ١١٢ ، ج ٢ / ٢٤٤ .

٦١ - انظر : الكتاب : ج ٢ / ٢٣٧ .

٦٢ - انظر : الكتاب : ج ٢ / ٢١٣ .

٦٣ - الكتاب ج ٢ / ١١٩ .

٦٤ - الكتاب ج ٢ / ١٤٢ ، ج ٢ / ٤٢٥ .

٦٥ - الكتاب ج ٢ / ٤١١ .

٦٦ - الكتاب ج ٢ / ١٣٥ .

العرب ... » ، (٦٧) « أن من العرب من يقول ... » .

وقد روى عن رؤية (٦٨) من الشعراء ، والفـرزـدق (٦٩) ،
وجرير (٧٠) ، والأسود (٧١) بن يعفر . وروى عن أبي (٧٢) عمرو بن
العلاء، وكان طريق سيبويه إليه ، وروى عن ابن (٧٣) أبي اسحق .
وتأتي شخصيته النحوية من خلال الكتاب في الدرجة الثانية (٧٤) بعد
شخصية الخليل ، وكثيرا ما كان يقرن اسماهما في رواية أو رأي . ومما
يلفت النظر في رواية سيبويه عنهما . حين ذكرهما معا ، انه كان يترحم
عليهما اذا سبق ذكر يونس ذكر الخليل . اما اذا سبق ذكر الخليل يونس
تُرِّحَّم على الخليل وحده . ثم اتبع الترحُّم عليه ذكر يونس، فهو يقول في
الموضع الأول مثلا : (٧٥) « وزعم يونس والخليل، رحمهما الله، أن الدرهم
ليست نكرة » ، (٧٦) « ولم يجز يونس والخليل — رحمهما الله — كما غلمانا
لك » ، (٧٧) « هذا قول يونس والخليل رحمهما الله » . وفي الثاني
يقول مثلا : (٧٨) « واذا لم تلحق الالف قلت، وازيد، إذا لم تضيف ، ووازيد،

٦٧ — الكتاب ج ١ / ٢٦٢ ، ج ٢ / ٦٥ .

٦٨ — انظر الكتاب : ج ١ / ٥١ ، ج ٢ / ١٥٢ ، ج ٣ / ٢٠٤ ، ٥٦٥ .

٦٩ — انظر الكتاب ج ٢ / ٧٢ .

٧٠ — انظر الكتاب : ج ١ / ٢٧٨ .

٧١ — انظر الكتاب : ج ٣ / ١٣٥ .

٧٢ — انظر الكتاب : ج ١ / ٢٨٧ ، ج ٢ / ١١٣ ، ١٨٥ ، ٢٩٩ ، ٣١٩ ، ج ٣ / ١٠١ ، ٢٤٢٤ ،

٢٩٣ ، ٣٠٣ ، ٣٤٧ ، ٣٦١ ، ٤٥٧ ، ٥٦٦ .

٧٣ — انظر الكتاب : ج ٣ / ٢٤٢ .

٧٤ — كتاب سيبويه وشروحه ص ٣١ .

٧٥ — الكتاب : ج ١ / ٤٢٨ .

٧٦ — الكتاب : ج ٢ / ١٥٩ .

٧٧ — الكتاب : ج ٢ / ٣٣٨ .

٧٨ — الكتاب : ج ٢ / ٢٢١ .

إذا أضفت ، وان شئت قلت وأزيدني، واللاحق وغير اللاحق عربي فيما زعم الخليل رحمه الله ويونس « . وفي باب الندبة (٧٩) « وذلك قولك، وارجلاه، ويا رجلاه؛ وزعم الخليل، رحمه الله، ويونس أنه قبيح وأنه لا يقال » . ويقول: (٨٠) « زعم الخليل — رحمه الله — ويونس جميعا أنه يجوزهما اتاني غير زيد وعمر » . وفي اعراب الضمير بعد لولا : (٨١) « وهذا قول الخليل رحمه الله ويونس » . ولعلّ ما سلكه سيبويه ازاء الخليل ويونس يذكرني بالاعرابي الذي صلّى خلف النبي صلى الله عليه وسلم، ثم دعا الله قائلا : (٨٢) « اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا احدا » فدهش النبي وقال له : « لقد ضيّقت واسعا » .

ومفاتيح رواية سيبويه عن يونس كثيرة منها : (٨٣) « حدثنا يونس . . . » ، (٨٤) « اخبرنا يونس . . . » ، (٨٦) « أنشدنا يونس . . . » وفي اغلب الروايات : (٨٧) « زعم يونس . . . » ، (٨٨) « وإما يونس فيقول . . . » ، (٨٩) « وهذا قول يونس . . . » ونقل سيبويه عنه ابوابا كاملة في النحو والصرف ، إما عنه (٩٠) وحده ، وإما عنه وعن الخليل (٩١)

-
- ٧٩ — الكتاب : ج ٢ / ٢٢٧ .
 ٨٠ — الكتاب : ج ٢ / ٢٤٤ .
 ٨١ — الكتاب ج ٢ / ٢٧٣ .
 ٨٢ — بطل الإبطال ص ٦١ .
 ٨٣ — انظر : الكتاب : ج ١ / ١٥٥ ، ٤٠٩ — ج ٢ / ٣٥٥ ، ٣٦١ ، ٤١٠ — ج ٢ / ٣٣٧ .
 ٨٤ — انظر : الكتاب : ج ٢ / ٢٧٦ — ج ٢ / ٢٦٧ .
 ٨٤ — انظر : الكتاب : ج ٢ / ٤٥٥ .
 ٨٦ — انظر : الكتاب : ج ١ / ١٢٠ ، ٢٧٨ .
 ٨٧ — انظر : الكتاب ج ١ / ٢٨٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٥ ، ج ٢ / ٧٧ ، ٤١١ ، ١٩٩ ، ج ٢ / ١٣٥ ، ٤٢٥ ، ٤٢٩ .
 ٨٨ — انظر : الكتاب : ج ٢ / ٧٦ .
 ٨٩ — انظر : الكتاب : ج ١ / ٤٢٣ .
 ٩٠ — انظر : الكتاب : ج ٢ / ٤١٧ — ٤١٨ ، ج ٢ / ٤٢٣ — ٤٢٤ .
 ٩١ — انظر : الكتاب : ج ٢ / ٢١٢ — ٢١٤ ، ٣٢٨ .

جميعا .

ويعتز سيبويه في كتابه براي يونس ويعتد به ، ويثق ، فهو يعود اليه ويساله كلما اشكل عليه ، يقول في باب ما ينتصب على التعظيم او المدح : « (٩٢) وسمعنا بعض العرب يقول : (الحمد لله رب العالمين) نسالت عنها يونس فزعم انها عربية » ، ويقول في باب اختلاف العرب في الاسم المعروف الغالب اذا استفهت عنه بن : « (٩٣) وسالت يونس عن : رايت زيد بن عمرو ، فقال : اقول : من زيد بن عمرو ، لانه بمنزلة اسم واحد ؛ وهكذا ينبغي اذا كنت تقول : يا زيد بن عمرو ، وهذا زيد بن عمرو ، فتسقط التنوين » . ومواطن (٩٤) اسئلته له كثيرة .

وكان يتخذ من رواية يونس تصديقا لرواية نحوي آخر ؛ فهو يقول : « (٩٥) وزعم ابو الخطاب ان العرب الموثوق بهم يقولون : انا هذا ، وهذا انا . . . وحدثنا يونس ايضا تصديقا لقول ابي الخطاب . ان العرب تقول : هذا انت تقول كذا وكذا ، لم يرد بقوله : هذا انت ، ان يعرفه نفسه ، كأنه يريد ان يعلمه انه ليس غيره ، هذا محال ، ولكنه اراد ان ينبهه ، كأنه قال : الحاضر عندنا انت ، والحاضر القائل كذا وكذا انت .

واحيانا قد لا يطمئن الى قول نحوي فيلجأ اليه ، فعنده الخبر اليقين . يقول : « (٩٦) وزعم عيسى بن عمر ان ناسا من العرب يقولون : إذن افعل ذاك ، في الجواب ؛ فأخبرت يونس بذلك ، فقال : لا تبعدن ذا ، ولم يكن ليروي إلا ما سمع ، جعلوها بمنزلة هل وبلى » .

٩٢ - الكتاب : ج ٢ / ٦٣ .

٩٣ - الكتاب : ج ٢ / ٤١٤ .

٩٤ - انظر : الكتاب : ج ٢ / ٢٣٦ . ج ٣ / ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٤٤٢ .

٩٥ - الكتاب : ج ٢ / ٣٥٤ - ٣٥٥ .

٩٦ - الكتاب : ج ٢ / ١٦ .

ولم تتوقف الثقة بيونس الى هذا الحد ، وانما بلغت اتساعا بحيث
 اتخذ سيبويه من قوله دعامة يؤيد بها مذهبه ؛ فقد رأى سيبويه رأيا ثم
 بدا وكأنه يشعر بعدم الطمأنينة الى ما رآه، فدعمه بقول ليونس لتهدا به
 نفسه، قال : « (٩٧) وأما يا تميمُ اجمعون فأنت فيه بالخيار ، إن شئت
 قلت : اجمعون . وإن شئت قلت : اجمعين، ولا ينتصب على أعني ، من
 قبل أنه محال ان تقول أعني اجمعين ؛ ويدلك على ان اجمعين ينتصب
 لأنه وصف لمنسوب قول يونس : المعنى في الرفع والنصب واحد » .

غير أن الطريقة التي كان سيبويه يذكر بها يونس وروايته تُوهم
 وتُضلل ؛ إذ يصعب على الباحث بسببها ان يميز بين ما هو رواية محضة
 ليونس، وما هو رواية وراي في آن واحد . ولعل هذه الطريقة هي التي
 أوتعت النحاة المتأخرين ، وجعلتهم ينظرون الى رواية يونس على أنها
 رواية محضة، دون أن يلتفتوا او ينتبهوا الى أنها في أحيان كثيرة رواية وراي
 معاً . وقد وقع السيرافي، أشهر شراح الكتاب، في حيرة حين اعترضه قول
 سيبويه عن يونس في باب الندبة : « (٩٨) وأما يونس فيلحق الصفة
 الألف فيقول : وأزيد الظريفاه ، واجمجتى الشاميتيناه » «فقال (٩٩) : ندبة
 الصفة قول يونس والكوفيين ، والذي حكاه سيبويه عن يونس لست ادري
 إلحاق علامة الندبة له من قياس يونس ، او مما حكاه عن العرب فنحتج
 له به » .

وهذا « (١٠٠) باب ما لا يعمل فيه ما قبله من الفعل الذي يتعدى الى
 المفعول ولا غيره » يتحدث فيه سيبويه عن المواطن التي لا يعمل فيها
 المتعدي فيما بعده ، ويطلب في التفصيل والتوضيح، بينا ان الاسم بعد هذا

٩٧ - الكتاب ٢ / ١٨٤ .

٩٨ - الكتاب : ٢ / ٢٢٦ .

٩٩ - حاشية الكتاب : ٢ / ٢٢٦ .

١٠٠ - الكتاب ١ / ٢٣٥ .

الفعل قد يأتي مرفوعا وقد يأتي منصوبا ؛ كل ذلك في أسلوب يُوهَم المرء أن كل ما يقوله من رفع ومن نصب هو له ، ولكنه يفاجننا في نهاية الصفحة الرابعة بقوله « والرفع قول يونس » ، فلا يدري اهو الرفع الذي تحدث عنه في الفقرة التي ذكر يونس فيها ، ام الرفع في كل ما ورد في هذا الباب ! ومن يتمعن تماما في السياق العام للباب يجد ان الرفع كله ليونس ، اذ يبدو ان كل ما مثل سيبويه به يقوم على موقف يونس ، وان كنت لا أجزم بان كل ما جاء به سيبويه من امثلة هو ليونس ، ولكن يكفي ان يفهم ان مذهب الرفع الذي قام عليه معظم الباب هو مذهب يونس .

وحسب فهمي للامر وتصوري إياه ، فانني لا أستطيع ان افهم ان موقف يونس مما يرويه عن العرب كموقف ابي زيد مما يرويه ، او موقف الأصمعي مثلا مما يرويه ؛ ذلك ان ابا زيد والأصمعي راويان للغة فحسب ، بينما يونس بن حبيب راوية ونحوي ، ولكنه نحوي قبل ان يكون راوية . فاذا ما روى فان ما يرويه لا يكون في معظمه إلا لبيان موقف نحوي ، او استنباط موقف نحوي ، او التذليل على موقف نحوي اتخذه ، وذلك على الرغم من ان سوق سيبويه لرواية يونس يوهم انه يروي رواية دون ان يتخذ من هذه الرواية موقفا نحويا . فيونس تعد معظم حياته للدرس النحوي ، ولترسيخ القواعد النحوية في ضوء ما بين يديه من مادة لغوية ؛ فاذا قال سيبويه : « (١٠١) وحدثنا يونس ان بعض العرب يقول : يا أم لا تفعلني ؛ جعلوا هذه الهاء بمنزلة هاء طلحة اذا قالوا يا طلح أقبل . . » فكيف يكون هذا القول رواية ليونس ولا يكون رايا وموقفا ؟ إنه يقيس في هذا القول ويعلل . وكيف يكون قول سيبويه عن يونس في باب النداء : « (١٠٢) ويقوي ذلك كله ان يونس زعم انه سمع من العرب من يقول : يا فاسق الخبيث ؛ يدل على ان

١٠١ - الكتاب : ٢ / ٢١٢ .

١٠٢ - الكتاب : ٢ / ١٩٩ .

كل منادي مضموم هو معرفة » . كيف يكون هذا القول رواية ليونس ولا يكون رايًا يُلمح من سياق الكلام ؟ . بل كيف يكون رواية ما ينسب إلى يونس في قول سيبويه : « (١٠٣) وحدثنا بذلك يونس وعيسى جميعا أن بعض العرب الموثوق بعربيته يقول : ما مررت بأحد إلا زيدا » وقولاه : « (١٠٤) وحدثنا يونس أن بعض العرب الموثوق بهم يقولون : مالي إلا أبوك احد » . كيف يكون ذلك رواية ليونس مع أنه يروي هنا عن العرب الموثوق بهم : فكيف يكون هذا القول رواية ولا يكون رايًا، ما دام صاحب القول نحويًا أولاً وقبل كل شيء : وما دام يروي عن عرب موثوق بهم ؛ والنحوي يتصيد ما يرويه عن الموثوق بهم تصيداً ليبنى عليه رايًا وموقفاً نحويًا .

ومع أن يونس ذو شخصية واضحة بارزة تمثل في معظم صفحات الكتاب وتتلازم مع الخليل في مواضع عدة، إما روايةً — وهي في معظمها راي كما أسلفت — وإما رايًا صريحًا صرح به سيبويه • إلا أن هذه الشخصية تكاد لا تبين بوضوح، أو أن هذه الشخصية لا تأخذ المكانة التي تستحقها في معظم كتب النحاة المتأخرين ، بينما تظهر فيها شخصية الأخصى والمازني والجري وابن السراج والزجاج بشكل أوضح وبارز ، مع أن فرقاً كبيراً بين هذا وهؤلاء . لا بد أن يعتريك التساؤل والاستغراب حين تجد أن يونس لا يذكر في شرح ابن عقيل مثلاً ، أو شرح المفصل ، أو حاشية الصبان ، أو شرح الأشموني، أو مفني اللبيب، أو شرح التصريح، أكثر من ثلاثين مرة في أكثرها إنصافاً له ، مع أنه ذكر أكثر من مائتي مرة — كما أسلفت — في الكتاب • ولقد أوهمت هذه الكتب الدكتور شوقي ضيف أن يونس لم يكن له دور في علم النحو ، فاستخلص نتيجة، بعد أن مرّ عليه مروراً خاطفاً، مقال : « (١٠٥) وعلى هذا النحو وقع يونس بعيداً عن تطور

١٠٣ - الكتاب ٢/ ٢١٩ .

١٠٤ - الكتاب ٢/ ٢٢٧ .

١٠٥ - المدارس النحوية ص ٢٩ .

نظرية النحو على شاكلة ما انتهت اليه في الكتاب عند سيبويه والنحاة الذين يوضعون بحق في تطورها، وهم ابن أبي اسحق وعيسى بن عمر، ثم الخليل بن احمد وسيبويه . فهو يرى ان ابن أبي اسحق وعيسى بن عمر اهم من يونس واكثر تأثيراً في مجال النحو ؛ ولو عاد الدكتور شوقي ضيف الى كتاب سيبويه، الذي يعدّه الثمرة الناضجة لتطور نظرية النحو، وتتبع مساهمة يونس فيها، لكان له موقف آخر مختلف ، ولكنه اكتفى بالعودة الى تلك الكتب المتأخرة التي طهست شخصية يونس واثره في النحو في حد بعيد .

ولعلّ عدم وضوح شخصية يونس وإنصائها وإعطائها ما تستحقه من حق ضائع يعود الى سببين، الاول : ما سلفته ، وهو الطريقة التي كان سيبويه يتبعها في ذكر يونس وروايته ، إذ كانت تؤدي الى اللبس والتضليل، بحيث يصعب على الباحث ان يميز بين ما هو رواية محضّة، وما هو رواية ورأي ؛ فترك المتأخرون البحث في هذا الامر ولجأوا الى الحل الأسهل، وهو ان ينظروا الى كل ما رواه يونس على أنه رواية محضّة ، وان ينظروا الى الرأي الذي بني على ما رواه يونس على انه رأي لسيبويه . والسبب الثاني : — وهو اشدّ وقعا — ان النحاة المتأخرين وزّعوا الكثير من آرائه التي صرح بها سيبويه على اولئك النحاة الذين وافقوه فيها ، فنسبوا بعضها الى سيبويه وبعضها الى البصريين تعميماً ، وبعضها الى الكوفيين .

فمما نسب الى سيبويه وهو ليونس والخليل، حكم الاسم المضاف في المنادى حينما يكرر، قال سيبويه : « (١٠٦) هذا باب يكرر فيه الاسم في حال الاضافة ويكون الاول بمنزلة الآخر ، وذلك قولك : يا زيدَ زيدَ عمرو ، ويا زيدَ زيدَ أخينا ، ويا زيدَ زيدَنا . زعم الخليل، رحمه الله، ويونس ان هذا

كله سواء، وهي لغة للعرب جيدة . وهذا الرأي واضح انه ليونس والخليل
وليس لسيبويه فيه إلاّ التوضيح ؛ وقد نُسبَ هذا الرأي الى سيبويه كل من
ابن عقيل (١٠٧) ، والأشموني (١٠٨) ، والصبان (١٠٩) .

ومما نسب اليه ايضاً رأي يونس والخليل في الضمير بعد لولا، قال
سيبويه : « (١١٠) هذا باب ما يكون مضمراً فيه الاسم متحولاً عن حاله
اذا أظهر بعده الاسم، وذلك لولاك ، ولولاي، اذا اضمرت الاسم فيه جُزّ ،
واذا أظهرت رُفع ، ولو جاء علامة الاضمار على القياس لقلت : لولا انت،
كما قال سبحانه : (لولا أنتم لكنا مؤمنين) ولكنهم جعلوه مضمراً
مجروراً ؛ والليل على ذلك ان الياء والكاف لا تكونان علامة مضمراً
مرفوعاً ؛ قال الشاعر يزيد بن الحكم :

وكم موطن لولاي طحت كماهوى باجرامه من قلة النيق منموى

وهذا قول الخليل رحمه الله ويونس . والرأي في هذا الموضع
صريح الصراحة كلها انه ليونس والخليل، وقد نسبه الى سيبويه كل من
المبرد (١١٢) ، وابن عقيل (١١٣) ، وابن الشجري (١١٤) ، والرضي (١١٥) ،
ونسبه ابن هشام (١١٦) الى سيبويه والجمهور .

ومما نسب الى البصريين رأي يونس والخليل في ندبة النكرة ، قال

-
- ١٠٧ - انظر : شرح ابن عقيل ٢/٢١٢ .
١٠٨ - انظر : شرح الأشموني ٢/٤٥٤ .
١٠٩ - انظر : حاشية الصبان ٢/١٥٤ .
١١٠ - الكتاب ٢/٣٧٣ - ٣٧٤ .
١١١ - سبا - آية ٣١ .
١١٢ - انظر : الكامل في الأئمة ١/١٠٩٧ .
١١٣ - انظر : شرح ابن عقيل : ٢/٦ .
١١٤ - انظر : أمالي ابن الشجري ١/١٨٠ .
١١٥ - انظر : شرح الكافية ٢/٢٠ .
١١٦ - انظر : مخني الأبيوب ص ٣٦١ .

سيبويه : « (١١٧) هذا باب ما يجوز أن يندب ، وذلك قولك : وأرْجُلَاهُ ،
ويا رُجُلَاهُ ، وزعم الخليل رحمه الله ويونس أنه قبيح وأنه لا يقال » . وقد
نسب ابن الأنباري (١١٨) هذا الرأي الى البصريين فطمس بذلك ذكر
يونس على الرغم من أنه واحد من البصريين كالخليل وسيبويه .

ومما نُسب الى الكوفيين رأي يونس في جواز عود الخافض وعدمه ،
إذا كان المخفوض ضميراً ؛ فقد نسبته الى الكوفيين كلٌّ من ابن عقيل (١١٩)
وابن الأنباري (١٢٠) ؛ أما الأشموني فنسبته الى يونس والكوفييين ،
قال : « (١٢١)

وعود خافض لدى عطف على ضمير خفّض لازماً قد جُمعلا

في غير الضرورة ، وعليه جمهور البصريين . . قال الناظم : (وليس)
عود الخافض (عندي لازماً) وفاقاً ليونس والأخفش والكوفيين . . . » .

ومما نسب اليهم أيضاً رأي يونس في الفصل بين المضاف والمضاف
اليه ، فقد نسب اليهم كل من ابن الأنباري (١٢٢) والأزهري (١٢٣) ، بينهما
نسبه الرضي اليه ، قال : « (١٢٤) وانكر أكثر النحاة الفصل بالمفعول وغيره
في السعة ، ولا شك أن الفصل بينهما في الضرورة بالظرف ثابت مع قلته
وقبحه ؛ والفصل بغير الظرف في الشعر أقبح منه بالظرف ، وكذا الفصل
بالظرف في غير الشعر أقبح منه في الشعر ؛ وهو عند يونس قياس » .

١١٧ - الكتاب ٢ / ٢٢٧ .

١١٨ - انظر الانصاف ١ / ٣٦٢ .

١١٩ - انظر : شرح ابن عقيل ٢ / ١٨٧ .

١٢٠ - انظر : الانصاف ٢ / ٤٦٣ .

١٢١ - شرح الأشموني ٢ / ٤٢٩ .

١٢٢ - انظر : الانصاف ٢ / ٤٢٧ .

١٢٣ - انظر : شرح التصريح ٢ / ٥٧ .

١٢٤ - شرح الكافية ١ / ٢٩٣ .

ويكاد يونس لا يُذكر الا بذكر آرائه التي خالفه سيبويه فيها ؛ من ذلك خلافهما في حكم جواب الشرط المضارع اذا دخلت همزة الاستفهام على الشرط في بدايته • قال الزجاج : « (١٢٥) هذا باب ما جاء في التنزيل من ادخال همزة الاستفهام على الشرط والجزاء ؛ وهذه ايضا مسألة فيها اختلاف بين سيبويه ويونس ، وصورتها ان تأتني اتك ، بجزم الجواب عند سيبويه ، ويونس يقول : ان تأتني آتيك ، بالرفع ؛ ويقول هو في نية التقديم ، ويقدره : اتيك ان تأتني » .

ومن ذلك مخالفة سيبويه يونس في اصل لبيك (١٢٦) ، وفي تصغير هند لو سُمِّي بها مذكر (١٢٧) ، وفي : من زيذاً واباه ، في النصب على الحكاية (١٢٨) ، والنسبة الى نحو ملهى (١٢٩) ، وابدال نون المثنى همزة نحو اضرباء الغلام (١٣٠) ، والنسبة الى مائه (١٣١) ، وردّ المحذوف في التحقير (١٣٢) .

وكتاب سيبويه ، حسب فهمي اياه ، يتنازعه نحاة ثلاثة ، وهم الخليل ويونس وسيبويه ، مرتين — في رأيي — حسب مساهمتهم في هذا الكتاب ؛ ولكن سيبويه بدت شخصيته النحوية وكأنها تفوق شخصية يونس ، بل كادت تبدو متفوقة على شخصية الخليل ، وقد ناقشتها فعلا في كتب النحاة المتأخرين • ولعل مرد ذلك الى تأليف سيبويه الكتاب بعد ان للم شتات

١٢٥ — اعراب القرآن ٣/٧٨٢ .

١٢٦ — انظر : خزانة الادب ٢/٩٢ ، شرح التصريح ٢/٢٨ . والكتاب ١/٣٥١ .

١٢٧ — انظر : الخصائص ١/١٥٧ .

١٢٨ — انظر : الكتاب ٢/٤١٣ ، وشرح الاشموني ٣/٦٤٢ .

١٢٩ — انظر : شرح الاشموني ٣/٧٢٧ .

١٣٠ — انظر : حاشية الصبان ٣/٢٢٥ .

١٣١ — انظر : الخصائص ٢/١٠٦ .

١٣٢ — انظر : المصدر نفسه ٢/٧١ — ٧٢ .

القواعد النحوية وبؤيها ودلّل عليها . ولو قدّر ليونس — واعتذر لاستعمل
لو — ان يؤلف الكتاب، وأن يتنازعه الخليل ويونس وسيبويه لتفوقست
شخصيته على شخصية سيبويه تفوقا واضحا في الكتاب وغيره، ولكانت
وضعت بجدارة في المكانة التي تستحقها . من غير أن اكون في هذا القول
متعصبا ليونس او معطيه مكانة اكثر من التي له ، كبعض الباحثين الذين
يقفون في احيان كثيرة موقف المدافع ، او المتعصب للشخصية التي يبحثون
فيها، وكان الأمر يُسمّم او يتعلّق بهم . ومنطلقي في مقفي هذا هو العطاء
العلمي الثرّ الذي بين يديّ ليونس من خلال الكتاب .

ولم يكن ليونس اثر في سيبويه وكتابه بصفة خاصة ، والمدرسة
البصرية بصفة عامة فحسب ، وانما كان له اثر كبير ايضا في نشأة المدرسة
الكوفية التي اتخذت من اتجاهه مساراً لها وهاديا .

نقد ساد المدرسة البصرية زمن يونس اتجاهان في النحو :

الاتجاه الاول : اتجاه متشدد في القياس والسماع عن العرب، ويمثله
ابن ابي اسحق ، وتلميذه عيسى بن عمر ؛ فكان الاول : « (١٣٣) اشد
تجريدا للقياس » وكان يطعن على العرب ، ولا يتحرّج من ان يقول للشاعر
العربي المشهور بالفصاحة : لحننت ؛ فقد لحن (١٣٤) الفرزدق في قوله:
« مولى مواليا » في بيته :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى موييـا

وقال له : كان يجب ان تقول : مولى موال .

وتبعه الثاني الذي كان لا يتحرّج من الطعن (١٣٥) على العرب

١٢٢ — طبقات فحول الشعراء ، ص ٣٠ (دار المعارف ١٩٥٢ م) .

١٢٤ — نزهة الالباء ص ٢٧ .

١٢٥ — طبقات النحويين واللغويين ص ٣٢ .

ايضا ، فكان يقول (١٣٦) : اساء النابغة في قوله :

فَبِتُّ كَأَنِّي سَاوَرْتُنِي ضَنْبِيَةَ مِنْ الرُّقْشِ فِي أُنْيَابِهَا السُّمُّ نَاقِعٌ
والوجه الصواب عنده : السم ناقعا .

أما الاتجاه الثاني فهو اتجاه متساهل في القياس ، معظّم لما يرد عن العرب ؛ ويمثله أبو عمرو بن العلاء ، وتلميذه يونس بن حبيب . وكان الأول « (١٣٧) أوسع علما بكلام العرب ولغاتها وغريبها » ، وكان (١٣٨) « أشد تسليماً للعرب » ، وكان يجوّز الأوجه المختلفة التي ترد عنهم • جاءه عيسى ابن عمر (١٣٩) « فقال له : يا أبا عمر : ما شيء بلغني أنك تجيزه ؟ قال : وما هو ؟ قال : بلغني أنك تجيز « ليس الطيب إلا المسك » فقال أبو عمرو : نعمت يا أبا عمرو وأولج الناس ، ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب ، وليس في الأرض تميمي إلا وهو يرفع » .

وكان أبو عمرو ينشد قول ذي الرمة (١٤٠) :

وظَاهِرٌ لَهَا مِنْ يَابِسِ الشُّخْتِ

فقيل له : أنشدتنا بئس ، فقال : يابس بئس واحد ، هذا شعر

ليست عليه مضايقة .

١٣٦ - طبقات فحول الشعراء ، ص ١٦ ، (دار المعارف ١٩٥٢ م) .

١٣٧ - طبقات فحول الشعراء ، ص ١٤ (دار المعارف ١٩٥٢ م) .

١٣٨ - نزهة الألباء ، ص ٢٧ .

١٣٩ - طبقات التحوين واللغويين ، ص ٢٨ . وانظر : الإشباه والنظائر ج ٣ / ٧٢ .

١٤٠ - المحضوب ج ١ / ٢٩٧ .

أما يونس فسار مساره إذ كان يجلّه ويحترم رأيه ويقول : (١٤١) «لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله كله في شيء واحد كان ينبغي لقول أبي عمرو ابن العلاء في العربية أن يؤخذ كله ، ولكن ليس أحد إلا وانت أخذ من قوله وتارك » . فاقضى أثره في عدم الطعن على العرب ؛ فهذا ابن أبي اسحق (١٤١) يسمع قول الفرزدق في مدحه يزيد بن عبد الملك :

مستقبلين شمال الشام تضربنا بحاصب كنديف القطن منشور
على عمائنا يلقنى وأرجلنا على زواحف تزجى مخها رير
فيقول له : (١٤٢) « أسأت إنما هي « رير » ؛ وكذلك قياس النحو في هذا الموضع » . وقيل أنه قال له : (١٤٣) « أسأت ، موضعها رفع ، وإن رفعت أقوى » . أما يونس فلم يكتف بتجويد قول الفرزدق ، وإنما ذهب إلى استجادته فقال : (١٤٤) « وهذا جيد » . أو استحسنته فقال : « (١٤٥) والذي قال حسن جائز » .

ويسمع أبو عمرو ويونس قول الفرزدق :

وعضّ زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجرف
فيقفان حائرين أمام الوجه الذي رفع الفرزدق عن أساسه «مجرف»
من غير أن يفكرا بتخطئته أو الطعن عليه ، ويحاولان أن يجدا تخريجا

١٤١ - الشعر والشعراء (المقدمة) . والبيتان في ديوان الفرزدق ج ١/٢١٢ .

١٤٢ - طبقات فحول الشعراء ؛ ص ١٧ (مطبعة المدني - القاهرة) . طبقات التعويين والتفويين ص ٣٢ .

١٤٣ - خزنة الألب ج ١/٢٢٨ .

١٤٤ - المصدر السابق ؛ ٢٢٨/١ وقد أورد هذا الكتاب (٢٢٩/١) أن علي بن حمزة البصري كان يقول في كتاب التبيهات على إغلاط الرواة : والخفى في « رير » جيد ، وتقديره على زواحف رير مخها تزجى .

١٤٥ - طبقات فحول الشعراء ١٧/١ (مطبعة المدني - القاهرة) .

فلم يعثرا ، فيقول أبو عمرو : (١٤٦) « لا أعرف لها وجها ، وكان يونس لا يعرف لها وجها ، قلت ليونس : لنمل الفرزدق قالها على النصب ولم يأبسه ، فقال : لا ، كان ينشدها على الرفع وأنشد فيها رؤية على الرفع » .

ولما جاء الكسائي الى البصرة تتلمذ على أبي عمرو بن العلاء ، وتأثر به تأثرا ملحوظا، ويقال انه بقي ملازما له (١٤٧) « نحو سبع عشرة سنة » ، وتلمذ بعد ذلك على يونس بن حبيب تلميذ أبي عمرو ، وكان يونس يثني عليه في مجلسه بالبصرة ويشجعه ، فقد سئل (١٤٨) بحضرته عن توجيه رفع الخمر في بيت الفرزدق : (١٤٩)

غداة أحلت لابن أصرم طعنةً حصين عبيطات السدائف والخمر

فقال للكسائي : على أي شيء رفعت ؟ فقال : أضمرت فعلاً ، كأنه « وحلت لي الخمر » ، فقال يونس : ما أحسن والله ما وجهته — وفي رواية أخرى (١٥٠) انه قال : أشهد ان الذين رأسوك رأسوك على حق — غير اني سمعت الفرزدق ينشده :

غداة أحلت لابن أصرم ضربةً حصين عبيطات السدائف والخمر

جعل الفاعل مفعولا ، كما قال الحطيئة (١٥١) :

فلما خشبت الهونَ والعيرُ ممسكٌ على رغمه ما أمسك الحبلَ حافرُه

والقصيدة على الرفع، جعل الفاعل مفعولا ، فقال الكسائي : هذا

١٤٦ — المصدر نفسه ج ١ / ٢١ . وانظر : الموشح ص ٩٢ والبيت : ديوان الفرزدق ج ٢ / ٢٦ .

١٤٧ — الاقتراح ، ص ٨٥ .

١٤٨ — مجالس العلماء : مجلس ١٠ .

١٤٩ — ديوان الفرزدق ج ١ / ٢٥٤ .

١٥٠ — تاريخ بغداد ج ١١ / ٤١٠ .

١٥١ — ديوان الفرزدق ج ٢ / ٢٦ .

١٥١ — ديوان الحطيئة ص ١٨٢ (تحقيق نعمان طه الطبعة الأولى سنة ١٩٥٨) .

١٥٢ — ديوان الفرزدق ج ٢ / ٢٦ .

على هذا وجه .

وكان يونس يتجنب تخطئة الكسائي ، ويردّ قوله ردّاً لطيفاً جميلاً ؛
فما هو يسأل (١٥٢) في مجلسه إن أولق : ما مثاله من الفعل ؟ فيقول :
افعل، فيقول يونس له : استحيت لك يا شيخ ! والظاهر عندنا من أمر أولق
انه فُوعِلُ من قولهم : الق الرجل فهو مألوق . أما ابن أبي عيينة الذي سأل
هذا السؤال فيسارع (١٥٣) بعد الاجابة الى القول : خطأ والله .

ليس هذا فحسب، وإنما كان يونس يفضب الغضب كله اذا ما احس
ان احدا في مجلسه حاول ان يستثيره او يعمد الى تخطئته، ويقول : (١٥٤)
تؤذون جليسنا ، ومؤدب ولد أمير المؤمنين .

وقد توطلدت العلاقة بين يونس والكسائي ، وتعمقت بعد هذا
السلوك الذي كان له اجمل الاثر في نفس الكسائي، ولا سيما بعد المسائل
النحوية التي جرت بينها واقتر له يونس فيها ، وكافاه على ذلك بأن صدره
موضعه .

ولم يكن الكسائي الكوفي الوحيد الذي درس على يونس ، وإنما
درس عليه الفراء أيضاً وكان الكوفيون — كما يبدو من رواية أبي الطيب
اللغوي — يفتخرون بأنه اخذ عن يونس فأكثر، قال : (١٥٥) « وأهل الكوفة
يدعون أنه استكثر منه ، وأهل البصرة يدعون ذلك » وهذه الرواية إن
دلّت على شيء فانما تدلّ على مدى المكانة التي كان يونس يمثلها في ذهن
الكوفيين وفكرهم .

١٥٢ — الخصائص ج ٢/٢٩١ .

١٥٣ — مجالس العلماء مجلس ١١٩ .

١٥٤ — المصدر نفسه مجلس ١١٤ .

١٥٥ — مراتب التحويين ص ٨٦ .

وقد كان عقل الكسائي متنبها ويقظا لكل ما كان يسمعه عن يونس
من أجل أن يأخذ به ويقتني أثره ؛ فهذا يونس بن حبيب يسأل (١٥٦)
والكسائي حاضر : لِمَ صارت « حتى » تنصب الأفعال المستقبلية ؟ فيقول :
هكذا خلقت . ويسأل (١٥٧) الكسائي فيما بعد في مجلس يونس عن
قولهم : لأضربن أيّهم يقوم ، لم لا يقال : أيّهم ، فيقول أيُّ ، هكذا خلقت .

كل ذلك دفع الكسائي والكوفيين بعده الى أن يتبعوا الاتجاه النحوي
الثاني الذي سار فيه أبو عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب وهو الاتجاه الذي
يعظم لغات العرب ويقبل بتجويزها مهما تباعدت ، من غير طعن أو تلحين ؛
أما البصريون فواصلوا السير على الاتجاه الأول ، اتجاه ابن أبي اسحق
وعيسى بن عمر وهو الاتجاه الذي اتسم بالتشدد في القياس وتأويل ما
يخالفه ، أو تشذيذه ، أو تخطئته إذا لم يكن بديل للتخطئة .

وقد اتبع الكوفيون يونس في آراء كثيرة خالف فيها البصريين ، منها
تجريزه (١٥٨) أن تلقى علامة الندبة على الصفة ، نحو قولك « وازيد
الظريفاه » بينما ذهب الخليل (١٥٩) الى أن هذا خطأ .

وتبعوه في جواز (١٦٠) ادخال نون التوكيد الخفيفة على فعل الاثنين
وجماعة النسوة ، نحو « افعلان » و « افعلانان » بالنون الخفيفة ؛ وأيد ابن
جنى هذا المذهب قائلا : « وليس ذلك . . . بالمتنع في الحس ، وان كان

١٥٦ - طبقات النحويين واللغويين ص ١٧٧ .

١٥٧ - مجالس العلماء مجلس ١١٤ . وانظر : الخصائص ج ٢/٢٩٢ .
واوضح المسالك ج ١/١٠٩ .

١٥٨ - انظر : الانصاف مسألة ٥٢ ، شرح الفصل ج ٢/١٤ ، حاشية الصبان ج ٢/١٦٩
والرأي في الاصول ج ١/٤٣٦ منسوب الى يونس وحده .

١٥٩ - الكتاب ١/٢٢٦ .

١٦٠ - انظر : الانصاف مسألة ٩٤ . شرح الاثمنوني ج ٢/٥٠٢ . شرح التصريح ج ٢/٢٠٧ .

غيره أسوغ فيه منه من قبل أن الالف اذا أُشيع مدها صار ذلك كالحركة فيها . أما البصريون فذهبوا (١٦١) الى انه لا يجوز ادخالها في هذين الموضوعين .

وتبعوه في عدم (١٦٢) ضرورة عود الخافض .

وتبعوه في ان « اي » (١٦٣) في نحو : لا ضربن ايُّهم افضل ، معرب ، ولكنه يقول إنه مرفوع بالابتداء و « افضل » خبره ، والفعل معلق عن العمل . اما هم فيقولون إنه مفعول به منصوب ، بينما يرى سيبويه انه مبني على الضم .

وتبعوه في ان الذي (١٦٤) يقع مصدرا ، كما ورد في قوله تعالى : (١٦٥) (وخضتم كالذي خاضوا) أي خاضوا فيه ، وقوله (١٦٦) (ذلك الذي يبشر عباده) أي يبشر الله به عباده .

وتبعوه في ان « وحده » (١٦٧) منصوبة على الظرف ؛ قال سيبويه (١٦٨) وزعم يونس ان وحده بمنزلة عنده .

وبناء على كل ما مضى من اقوال وادلة وآراء حول اثر يونس في الكسائي والكوفيين فانني استطيع القول ان تاثير يونس في هؤلاء كان

١٦١ - انظر : الانصاف مسألة ٩٤ .

١٦٢ - انظر : شرح التصريح ج ٢ / ١٥١ ، شرح الاشموني ج ٢ / ٤٢٩ .

١٦٣ - انظر الكتاب ج ٢ / ٣٩٨ - ٤٠١ . والانصاف مسألة ١٠٢ ، وجمع الهوا مع ج ١ / ٣١٣ .

١٦٤ - مفني اللبيب ص ٧٠٩ ، وانظر نسبة الراي الى يونس في : اعراب القرآن ج ١ / ٣١٥ .

١٦٥ - التوبة آية ٦٩ .

١٦٦ - الشورى آية ٢٣ .

١٦٧ - حاشية الشيخ ياسين في شرح التصريح ج ١ / ٢ .

١٦٨ - الكتاب ج ١ / ٣٧٧ .

واضحا شديد الوضوح وبارزا ، بل وبناء على كل ما مضى يخيل الي أنني
استطيع القول أن ابن حبيب النحوي كان مؤسسا بارزا من مؤسسسي
المدرسة الكوفية، أو على الأقل كان مساهما مساهمة فعالة في نشأة هذه
المدرسة ؛ فهو الذي فتح لها مجال السير في الاتجاه المذكور الذي كان يتجهه
مع أستاذه ، من غير أن يتعارض هذا القول مع بصريته ؛ وبالتالي فلا
استطيع أن أعده ممن وضعوا النواة الأولى للمدرسة البغدادية، كما ادعى
(١٦٩) الدكتور أحمد مكي الأنصاري * ولعل قرب يونس من الكوفيين
هو الذي دفع الأنصاري الى ذلك . فالتقاء يونس بالكوفيين وأثره فيهم كان
قبل أن تنشأ المدرسة البغدادية وتقف على قدميها ؛ ونواة المدرسة
البغدادية لا يمكن أن تكون إلا بعد وجود المدرستين البصرية والكوفية، وهي
المعروفة بأنها اثبتت (١٧٠) من تمازج المدرستين ، وأنها مدرسة تقوم على
الانتخاب والتوفيق ، والنفوذ الى بعض ما يمكن النفاذ إليه من آراء
جديدة .

د. مهود حسني مهود

١٦٩ - أبو زكريا الفراء ص ٣٦٦ .

١٧٠ - المدرسة البغدادية في تاريخ النحو العربي ص ١١٦ .

المصادر

ابن الاباري

١ - الانصاف - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة ط الرابعة

. ١٩٦١

٢ - نزهة الالباء - تحقيق د. ابراهيم السامرائي . الطبعة الثانية . بغداد . ١٩٧٠ .

ابن جني

٢ - الخصائص - تحقيق محمد علي النجار . دار الهدى . الطبعة الثانية . بيروت .

٤ - المحتسب - تحقيق علي النجدي ناصف . القاهرة ١٢٨٦ هـ .

ابن خلكان

٥ - وفيات الاعيان - تحقيق د. احسان عباس . دار صادر - بيروت .

ابن السراج

٦ - الاصول في النحو - تحقيق د. عبد السلام الفنلي . مطبعة الاعظمي ، بغداد

. ١٩٧٢ م

ابن الشجري

٧ - امالي ابن الشجري . حيدرآباد . الطبعة الاولى ١٢٤٩ هـ .

ابن عقيل

٨ - شرح ابن عقيل . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة ، ط

الثانية عشرة ١٩٦١ م .

ابن العماد

٩ - شذرات الذهب - بيروت .

ابن قتيبة

١٠ - الشعر والشعراء .

ابن التميم

١١ - الفهرست . مطبعة الاستقامة بالقاهرة .

ابن دثام

١٢ - أوضح المسالك . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . دار احياء التراث

العربي . بيروت . الطبعة الخامسة ١٩٦٦ م .

١٣ - مفني اللبيب . تحقيق د. مازن مبارك . مراجعة الاساذ سعيد الانفاتي بيروت .

الطبعة الثانية ١٩٧٢ .

ابن يعيش

١٤ - شرح المفصل . المطبعة القيرية بصر .

ابو الطيب اللغوي

١٥ - مراتب التحوين - تحقيق أبو الفضل ابراهيم . القاهرة ١٩٧٤ .

ابو الفداء

١٦ - البداية والنهاية - مطبعة السعادة بصر .

الازهري

١٧ - شرح التصريح على التوضيح . دار احياء الكتب العربية .

الإسموني

- ١٨ — شرح الإسموني — تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة
بمصر . الطبعة الأولى ١٩٥٥ .

الإعشى

- ١٩ — ديوان الإعشى — تحقيق د. محمد حسين . المطبعة النموذجية .

الانصاري : د. أحمد مكي الانصاري

- ٢٠ — أبو زكريا الفراء . القاهرة ١٩٦٤ .

بروكلمان

- ٢١ — تاريخ الادب العربي . دار المعارف بمصر . الطبعة الثانية .

البغدادي

- ٢٢ — خزنة الادب . تحقيق عبد السلام هارون . مطبعة الحلبي .
٢٣ — تاريخ بغداد . مطبعة السعادة ١٩٢١ .

الجاحظ

- ٢٤ — الحيوان — تحقيق عبد السلام هارون . مطبعة الحلبي .
٢٥ — البيان والتبيين — تحقيق فوزي عطوي . بيروت .

الجبلي

- ٢٦ — طبقات فحول الشعراء — تحقيق محمود محمد شاكر . مطبعة المدني . القاهرة
١٩٧٤ ، دار المعارف ١٩٥٢ م .

الحديثي . خديجة الحديثي

٢٧ — كتاب سيبويه وشروحه . بغداد . الطبعة الاولى ١٩٦٧ .

حسني . د. محمود حسني

٢٨ — المدرسة البغدادية في تاريخ النحو العربي . رسالة دكتوراة مخطوطة في مكتبة

الجامعة الاردنية قسم المخطوطات وفي مكتبة جامعة القاهرة — كلية الاداب

ضمن الرسائل الجامعية .

الخطينة

٢٩ — ديوان الخطينة — تحقيق د. نعمان طه . الطبعة الاولى ١٩٥٨ .

الحموي — ياقوت الحموي

٣٠ — معجم الادباء — مطبعة دار المأمون . الطبعة الاخيرة .

٣١ — معجم البلدان . بيروت ١٩٥٦ .

الداودي . الحافظ شمس الدين

٣٢ — طبقات المفسرين — تحقيق علي محمد عمر . مطبعة الاستقلال الكبرى . الطبعة

الاولى ١٩٧٢ م .

الرضي

٣٣ — شرح الكافية . الشركة الصحافية العثمانية . ١٣١٠ هـ .

الزبيدي

٣٤ — طبقات النحويين واللغويين . تحقيق ابراهيم هيم . دار المعارف بمصر .

الزجاج

٣٥ — اعراب القرآن — تحقيق ابراهيم اليباري . القاهرة ١٩٦٣ م .

الزجاجي

- ٣٦ - مجالس العلماء - تحقيق عبد السلام هارون . الكويت ١٩٦٢ م .

الزمخشري

- ٣٧ - الفصل . دار الجيل . الطبعة الثانية .

سيوييه

- ٣٨ - الكتاب - تحقيق عبد السلام هارون

ج ١ دار القلم ١٩٦٦

ج ٢ دار الكاتب العربي القاهرة ١٩٦٨ م .

ج ٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ م

ج ٤ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ م .

السرافى

- ٣٩ - أخبار النحويين البصريين - تحقيق طه الزيني . الطبعة الاولى ١٩٥٥ م .

السيوطي

٤٠ - الإشباه والنظائر - تحقيق طه سعد . طبعة جديدة ١٩٧٥ م .

٤١ - الاقتراح في أصول النحو . حيدر آباد . الطبعة الثانية ١٣٥٩ هـ .

٤٢ - بنية الوعاة . تحقيق أبو الفضل إبرهيم . ط الاولى ١٩٦٥ .

٤٣ - معجم الهوامع - تحقيق عبد السلام هارون . الكويت ١٩٧٥ م .

الصبان

- ٤٤ - حاشية الصبان . دار احياء الكتب العربية .

ضيف . د. شوقي ضيف

٤٥ — المدارس النحوية . دار المعارف بمصر ١٩٦٨ م .

عزام . عبد الرحمن عزام

٤٦ — بطل الابطال . مطبعة الحلبي . الطبعة الاولى ١٩٢٨ م .

عيد . د. محمد عيد

٤٧ — الرواية والاستشهاد باللغة . القاهرة ١٩٧٢ م .

الفرزدق

٤٨ — ديوان الفرزدق . دار صادر . بيروت . ١٩٦٠ م .

القنطري

٤٩ — انباه الرواة — تحقيق ابو الفضل ابراهيم . مطبعة دار الكتب . القاهرة ١٩٧٢ م .

المبرد

٥٠ — الكامل في الادب — تحقيق د. زكي مبارك . مطبعة الحلبي الطبعة الاولى ١٩٢٧ م .

المرزباني

٥١ — الموشح . المطبعة السلفية . القاهرة الطبعة الثانية ١٢٨٥ هـ .

ناصر . علي النجدي ناصر

٥٢ — سيبويه (مام النحاة) .

ياسين

٥٢ — هاشمية الشيخ ياسين (ضمن شرح التصريح للزهري — دار احياء الكتاب

العربية) .